صور من الحياة :

وفـــاء ..!

للأستاذ كامل محمود حبيب

قلت لصاحبي : ما لهذا الرجل يسير الهوينى يتخلع فى مشيته وإن إهابه يكاد ينقد من أثر الخيلاء ، وينفض الشاطىء بالنظر الشزر وإنه ليتزى زياً وكبرياء ، ويزهى فى تيّاهه وبرنسه وقد روم أنفه من سلف كأنه رب هذا البحر لا يلوى على أحد ولا ينزل إلى دنيا الناس ولا تتطامن عظمته ولا تهدأ غطرسته !

فقال صاحبي : آه إن فى الناس رجالاً لو انشقّ عنهم ثوب الإنسان لتراءت من ثنايا سورة خنزير أو حمار . وإن لهذا الرجل حديثاً عجيباً لو اطلعت عليه لألفيته ذئباً لا يترفع عن أن يلغ فى دم الإنسان حتى يرتوى . وإنه ليتصنع ما ترى ليوهم الناس بأنه شئ وما هو بشئ .

قلت لصاحبي : إن له حديثاً ؟ هاته ! فإن فى النفس شوقاً إلى حديثك فأنا أحس فيه طلاوة ورواء وعقلاً .

قال : هذا الرجل ضابط كبير فى الجيش ، والجيش دائماً رمز للقوة والفتوة وعلامة الترفع والإباء ، وهو مدرسة تعلم الرجل كيف يصبح قوى القلب فى شجاعة ، ثبت الجنان فى حزم ، رابط الجأش فى عزم ، شديد المراس فى بأس . ليكون — حين يجد الجد — فتى الوطن الأول يذود عن حوضه ويحمى حوزته ، لا يقعد عن أن يشتى غمرات الموت فى غير رهبة ، ولا يفزع من أن يرد مضلاّت الردى فى غير خوف ، فهو ذخر الوطن عند الجلاد وذخره فى ميدان الجهاد . ولكن هذا الرجل تاه فى نزوات نفسه فما لمس فى الجيش معنى واحداً من معانيه السامية .

كان هذا الرجل — منذ سنوات — ضابطاً صغيراً فى مقتبل العمر وزهرة الحياة يتوثب قوة ونشاطاً ويتألق فتوة ورواء ، يبسم للأمل ويبسم هو له ، ويسكن إلى أخيلة المستقبل وهى — فى ناظريه — وضاءة مشرقة . ثم بدت له فى ثنايا حياته فتاة كانت حلم قلبه ونور عينه وسحر فؤاده فما لبث أن انطلق إلى أبيها يخطبها : ورضى الأب الثرى بالضابط الفقير زوجاً لابنته الجميلة الفتانة حين رأى فيه الرجولة والصلاح وحين بدا له أن المستقبل يوشك أن يفرج أمامه عن منصب فى الجيش ذى شأن ؛ ورضيت الفتاة به حين خلبها شبابه وزيه وحين أسرها جماله وحديثه .

وعاشت الفتاة إلى جانب زوجها تسعد رفقته وتطمئن إلى رأيه ، وترعى شأنه ، وتصبر على شظف العيش وراتبه ضئيل تافه ؛ وأبوها يرى ثم لا يقبض يده عنها . وعاش الزوج شقياً بجمالها تأكله الغيرة حين يراها تشع نوراً يخطف البصر ، وتصفعه الأنانية حين يلمس فيها معانى الشباب تخطف القلب . لطالما حدثته نفسه بأن يضرب بينها وبين العالم بحجاب لا تستطيع أن تظهره . ولكن أنى له أن يفعل وهو لم ير عليها من سوء ولم يحس فيها من عقوق . وتصرمت الأيام تبذر فيها معانى الإخلاص والمحبة ، وتؤرث فيه هو معانى الأنانية والغيرة . والفتاة تسبح فى حق عميق لا ينفذ بصرها — وهى فى عمايتها — إلى بعض ما يتأجج فى صدر زوجها .

ومضت سبع سنوات جنت الزوجة فى خلالها ثمرتين من ثمار الحياة فيهما سعادة القلب وراحة البال وفيهما جمال الحياة وفرحة المنار .. ثمرتين هما الابن والابنة . والتفّت الزوجة إلى حياتها وإلى وليديها ، فهى تقضى يومها بين حاجات الزوج ورغبات الطفلين لا تحس الضيق ولا تجد الملل .

وطمع الزوج الأحمق أن تنحط الأيام على الزوجة السكينة فتتوزعها بين شغل الدار وشغل الابن وهم الزوج جيماً فتسلبها من جمالها أو تعبث بسحرها . ولكن الأيام لم تزد الفتاة إلا إغراء وفتنة ، وغاظ الزوج ما رأى فاندفع يذيقها فنوناً من العنت والإرهاق لعل الأمى يمد يده الجاسية إلى مفاتنها فيمسح سمات الجاذبية والروعة ويمحو آثار الحسن والرواء . غير أن الفتاة العاقلة لم تلق بالاً إلى حماقات يرتكبها زوجها من عمد ليثير فى الدار لظى من خلاف يعصف بها وبوليديها فى وقت معاً .

وضاق الفتى بصبر زوجته فانطلق ينفّس عن نوازع شيطانية تثور فى نفسه ويكفكفها على كره منه . انطلق يتنفس من نفسه فتعرّف على فتاة من بنات الهوى ، وسوّلت له نفسه الوضيعة أن يدس لزوجه من يخبرها خبر حبه الجديد . وقالت الزوجة الحصينة

للرسول « ويل لك ! لا إخال زوجي يرضى بأن ينحط في مهاوي الرذيلة بعد أن جاوز سن الشيب ! » قال الرسول « لعلك ترميني بالكذب ! إنه يلقاها مساء كل يوم في مكان كذا من القاهرة » فقالت الزوجة « وماذا يمنيني ! سأدعه يتمتع بأي امرأة شاء ما دمت أرى بين يدي هاتين الزهرتين الجميلتين أجد فيهما اللذة والسلوة » وأحس الرسول بالخيبة والإخفاق فانفلت من لفتها لا يلوي على شيء . وأسرت الزوجة في نفسها أمراً ...

وفي المساء انطلقت الفتاة تستبق الخطى ... انطلقت لترى زوجها بين يدي فتاته التي أحب . وأحست بالدوار يكاد يغلبها على أمرها من عنف الصدمة وشعرت أن قلبها الطاهر يكاد ينشق عن صدع يتوثب من خلاله الضيق والكمد ، وأن عقلها يتضرم ناراً حامية توشك أن تلتهمها هي ، فأسرعت إلى الدار لتضع عنها إصرها في زفرات كاوية يتطاير الشيظ من جوانبها ، ولترسل الأسى من عينيها عبرات متدفقة هتانة ما تستطيع أن تكفكفها إلا حين تسمع وقع أقدام زوجها وهو يرقى درج السلم ، وإلا حين يهفو ولداها نحوها فتضمهما إلى صدرها في شوق وحنان .

يا لقلب الأنثى ! إنك صلب عنيد لا تضرب إلا أن تحس الخيانة من قلب رجل عملت أنت له الإخلاص والوفاء !

يا لقلب الأنثى ! إنك مراسخ متين لا يعصف بك إلا أن تستشعر المهانة والاحتقار والإهمال من قلب رجل أحببته ساعة من زمان !

أما أنت أيها الرجل ، فلقد سفلت أسفل سافلين ، حتى بعت زوجك وأولادك بالثمن البخس بغاة من عرض الشارع تستلبك من رجولتك ومن شهامتك ومن إنسانيتك في وقت معاً !

وانفض قلب الفتاة على أسى كأنك تخز الجبال من هوله ، فما استطاعت أن تكشف عن صهرتها أمام أبيها ، ولا أن تحدث أمها بحديث كربتها ، فراحت تتلمس السلوة في ولديها وفي كلب صغير كان عملا في الدار من قبل ، فأخذت تدلله في رقة وتحدب عليه في عناية . وأحس الكلب بسليقته الحيوانية أن سيدته تحنو عليه ، فذهب يتمسح بها ويخضع لها ويتمنع عند تدليها . ورضي الكلب بأن يكون عبد السيدة حين أحس فيها الشفقة والرحمة !

* * *

ومضت الأيام والشهور تبذر في الدار غراس الشقاق والاضطراب ، والزوجة تصبر على ضيق وتغضي على مضض ، وهي تنظر إلى طفليها في عطف وتضمهما في حنان ... ثلاث سنوات عجاف والمسكينة في الميدان تجاهد الرجل وهو غليظ الكبد واهي الرجولة لا يرعوي ولا يرتدع .

يا عجباً ! أفيكون شيطان الكبر قد ركبه لأنه تدرج في مناصب الجيش العليا في سرعة فاخذت نفسه تهوي إلى أسفل كلما سما منصبه إلى أعلى ؟

وضاق صدر الزوجة على رحابته ، ونفد صبرها على سعته ... فجاء حكم من أهلها وحكم من أهله ، فما استطاعا أن يصلحا ذات البين ، واتفق الزوجان — بعد لأي — على الطلاق !

وخيل للزوجة أنها تهرب من سجن أرغمت على البقاء فيه سنوات ، فهبت تعد حاجاتها في نشاط ، وتم شملها في جد ، وإن قلبها ليضطرب اضطراباً شديداً كلما تراءى لها أن ابنيها سيعيشان في كنف هذا الشيطان الفظ ، وإن كلبها ليتبعها في خضوع ويتمسح بها في ذلة ... ثم انطلقت صوب الباب فاندفع الكلب على أثرها ، ولكنها صفقت الباب من دونه لتحول بينها وبين كلب هذا الرجل ... الرجل الجاثم في ركن تجذبه خواطره الأرضية إلى أسفل ، فلا ينبض قلبه بعاطفة ولا تخفق أفكاره بنسمة روحانية .

وأحس الكلب بسليقته الحيوانية أن سيدته قد خرجت من هذه الدار ولن تعود أبداً ، فانطلق إلى الطفل يريد أن يودعها الوداع الأخير . يا لله ! أفأصيب الكلب بمس من الجنون فراح يذرع الطفل في سرعة ، ينظر إلى الشارع من هنا ومن هناك وهو ينبح نباحاً عالياً فيه الشجو والبكاء ؟ ولله لسيدة أن تستمتع بقلق الكلب وحيرته ، فوقفت حيناً تشير إليه وتناديه وهي تبسم ، ثم همت أن تركب سيارة أبيها وهي تنتظرها أمام الباب ، فاراعها إلا الكلب وهو يقذف بنفسه بين يديها .

ووقع الكلب فانكسرت رجله ، ولكنه — برغم ما يقاسي من ألم — اندفع صوب سيدته وهو ينبح نباحاً فيه الشجو والبكاء ، اندفع ليدفن نفسه في حجرها .

وطفرت من عيني السيدة عبرة ... عبرة واحدة .. لأن كلباً حفظ عهد الود ورعى حق الوفاء على حين لم يفعل الرجل .

آه ، يا صاحبي ، إن في الناس رجالاً لو انشق منهم ثوب الإنسان لتراءت من ثناياه صورة خنزير أو حمار أو ...

فاضل محمود حبيب